

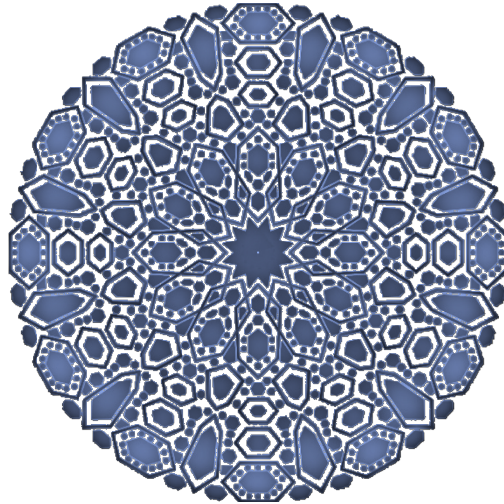


الفلسفة و العلوم فلاح السياقات الإسلامية



صورة العقل عند الشكّك بين القديم والوسيط

سعاد جويني
جامعة تونس، تونس



16 يوليو 2023

<https://philosmus.org/archives/3761>

الفلسفة و العلوم فلاح السياقات الإسلامية

ISSN: 2737-842X

كل الحقوق محفوظة ©

Šūrat al-‘aql ‘inda al-shukkāk bayna al-qadīm wa-al-wasīt

Reason in the Ancient Skeptics and its Impacts during the Medieval Era

صورة العقل عند الشكّاء بين القديم والوسيط

سعاد جوبني

جامعة تونس، تونس

Souad Jouini

Université de Tunis, Tunis

Abstract : The creativity of reason has been associated with many moments of regression that discussed a continuous review of its methods of action and the nature of its output. In this context, the philosophy of the skeptics was considered an immediate clear expression of the most outstanding defies which the mind had faced in its process in the past and present. The founders of this trend put trust in the capabilities of the mind into question, and they went far in asking about its possibilities and limits. Thus, Pyrrho (d. c. 275-270 BC) and his disciple Sextus Empiricus concluded that the mind is incapable of obtaining certain knowledge of existing things. The belief in the abstention of certainty caused a shock in the history of ancient philosophy, and the status of the mind changed from trustworthiness to the suspension of judgment. Thus, the contents of the problems were transformed from issues of nature and existence to the structure of the internal laws of the mind itself. In particular, it focused on the following question: How did the skeptics of the ancient period reach the destabilization of the special laws of the mind, which ended with the recognition of the weakness of the truth? Is the proof based on the logical sequence considered sufficiently coherent to recognize its ability to reach epistemological certainty? Is the mind really able to secure an actual perception of existing subjects, or is the proof of its inability to do so more certain for those skeptics? How did the above-mentioned philosophers deal with these problems? The issue of our understanding of this remains challenging, given the scarcity of texts available about them, which necessitated reading what was reported of their works within the context of the deductions that produced them. On the other hand, returning to icons representing the skeptic philosophers of the Middle Arab period, in clarifying the points of failure of the mind among the early and late ones. Al-Ghāzālī (d. 505/1111), for example, regained preoccupation with questioning this excessive positioning of the mind, according to new perspectives available at the time, which were translated into responses to some of his opponents from the philosophers of the medieval era. My purpose here, then, is twofold, and in reaching it we depend on the controversial context that we stated before. We will first work on explaining some of the objections to reason in their Greek origins. Secondly, we look at the nature of the resolutions offered by the medieval philosophers to overcome the crisis of the mind that was raised by their predecessors.

Keywords: Mind - Skeptic Philosophy - Ancient Philosophy - Medieval Philosophy

الملخص: اقترن إبداع العقل بلحظات ارتداد كثيرة أوجبت المراجعة الدائمة لطرق فعله ولطبيعة إنتاجه، وعدت في هذا الاتجاه، فلسفة الشكك تعبيرا واضحا عن أبرز التحديات التي واجهها العقل في مساره القديم والوسيط. فقد وضع مؤسسو هذا التيار الثقة في قدرات العقل موضع ارتياب، وذهبوا بعيدا في السؤال عن ممكاته وحدوده. وانتهى بذلك بيرون (Pyrrhon, d. c.275-270 BC)، وتلميذه سكستوس أمپريكوس (Sextus Empiricus)، إلى إقرار عجز العقل عن تحصيل معرفة يقينية بالموجودات. وأحدث القول بامتناع اليقين رجّة في تاريخ الفلسفة القديمة، وانقلبت منزلة العقل من الوثوق إلى تعليق الحكم. وتحوّلت بذلك، مضامين المشكلات من موضوعات الطبيعة والوجود إلى بنية القوانين الداخلية للعقل ذاته. وانحصرت بالخصوص في التالي: كيف توصل شكك الفترة القديمة إلى زعزعة القوانين الخاصة للعقل والتي انتهت بإقرار وهن الحقيقة؟ وهل يعتبر البرهان القائم على التسلسل المنطقي، متماسكا كفاية، للتسليم بقدرته على بلوغ اليقين المعرفي؟ وهل يقوى العقل حقًا على تأمين إدراك فعلي بالموجودات، أم أن برهان عجزه على ذلك أشدّ يقينا عند هؤلاء الشكّاء؟ كيف عالج الفلاسفة المذكورون هذه المشكلات؟ تظلّ مسألة فهمنا ذلك مستعصية، باعتبار شخّ النصوص المتوفرة حولهم، ما استدعى قراءة ما بلغ من أعمالهم ضمن سياق الخصومات التي أنتجتها. والعودة من جهة أخرى، إلى هيئات تمثل فلاسفة الفترة العربية الوسيطة لقول الشكّاء، في توضيح مواضع إخفاق العقل عند الأوائل والمتأخرين منهم. فقد استعاد الغزالي (ت. 505هـ/1111م) مثلا الانشغال بمساءلة هذا التّوضع المفرط للعقل، وفق منظورات جديدة توفّرت آنذاك، تُرجمت في الردود على بعض خصومه من فلاسفة الحقبة الوسيطة. غرضنا هنا إذن مضاعف، ونعتمد في بلوغه على السياق الخصامي الذي أعلنّا عنه. فسندشغل أولًا على بيان بعض وجوه الاعتراض على العقل في أصولها اليونانية. وننظر ثانيا، في طبيعة الحلول التي قدّمها الفلاسفة الوسيطيون لتجاوز محنة العقل التي أثّرت عند أسلافهم.

الكلمات المفاتيح: العقل - فلسفة الشكّاء - الفلسفة القديمة - الفلسفة الوسيطة.

مقدّمة

انشغل الفلاسفة بهدم صورة للعقل تضاهي عنايتهم بتلك التي تمّ بناؤها، ولم يختزل فعلهم في التظنن على هيئة مسار العقل بل اتّسع ليشمل أيضا الأسس، ومثّلت مدرسة الشكّاء في الفكر اليوناني القديم تجسيدا لمواجهة صلابة بنية العقل وسعيا إلى الحدّ من متانة إنتاجه. ولم يشفع هذا القلب الجذري في صورة العقل للشكّاء من انتزاع نفس الإشعاع الذي حظيت به الفلسفات المنتصرة لوثوق العقل على غرار الأرسطية والأفلاطونية، وتحديدًا في مستوى التدوين سواء من قبل الأتباع أو بوساطة الخصوم.

ويواجه من ثمة، دارس الفلسفة الشكّيّة تحفاً في المصادر خاصةً حول النشأة الأولى لهذا المذهب، مثلها يشير إلى ذلك العديد من المهتمين بتاريخ الفلسفة.¹ ونجابه بدورنا صعوبة أخرى نتصل بوفرة الأعمال حول الفكر القديم بوجه عام، وبزيادة الدراسات عن شكك الفترة القديمة بوجه خاص، رغم عامل الندرة المذكور. ونؤوّه في هذا المستوى بالقراءة الشاملة لكل من فكتور بروشار (Victor. Brochard, d. 1907) وفريدريك كوسيتا (Frédéric Cossutta) حول تاريخ الشكك القدماء وبعض ملامح تصوراتهم الفلسفية.²

وارتأينا لذلك التركيز على بعد آخر في عمل الشكك وهو السجل الخصامي الذي تحرك فيه هذا الفكر، والبحث في موضوعات النزاع القائم بين الشكك ونظرائهم من فلاسفة الفترة القديمة، واستعنّا في هذا المستوى خاصةً بالدراسة التي قدّمها جون بول ديومون (Jean-Paul Dumont, d.1993) حول تاريخ الشكك.³

ونسعى في فهم خصوصية هذه الفلسفة اعتماد منهج المقارنة بينها وبين ما ورد عند أصدادها حول بعض المسائل الأساسية؛ فهل أنّ الخصومات هي التي أنتجت التصورات الشكّية، وعدت لذلك مجرد ردود فعل لا ترتقي إلى مستوى البناء النسقي المتكامل، أم أنّها تعبر عن فلسفة قائمة بذاتها انبثقت في مواجهة أسس العقل، وذلك ما أكد خصوصية منزلتها في تاريخ الفلسفة القديمة؟

نهدف في هذا العمل أيضاً إلى البحث في تلقي فكر الشكك ضمن الفترة العربية الوسيطة، والوقوف عند صورة العقل كما تمثلها فلاسفة هذه المرحلة من تاريخ الفكر في ظل ثقافة وافدة تقوم على نقد العقل. كيف تمّ التعامل مع فلسفة الشكك؟ هل حظيت بالاستعادة باعتبارها مذهبا قائم الذات وحاملا لمضمون نسقي منظم يؤتمّ العقل، أم تمّ التعامل معها انتقائياً، أي في حدود ما تفرضه الحاجة التعليمية؟

نعين هذه المشكلات وفق خطة بحث خصّصنا القسم الأول منها لعرض التلقي المادي لآثار الشكك، ودراسة كيفية نقلة تصوراتهم في الفترة القديمة. ونعني ثانياً بالنظر في خصوصية هذا المذهب، وتوضيح بعض

¹ نشير هنا من باب الذكر لا الحصر إلى عمل:

Victor Brochard, *Les sceptiques grecs* (Paris: J. Vrin, 1981).

ووردت الإشارة إلى ندرة المصادر في الصفحة 40.

² بالإضافة إلى المرجع المذكور في الهامش السابق يمكن العودة أيضاً إلى:

Frédéric Cossutta, *Le scepticisme* (Paris: P.U.F, 1994).

³ Jean-Paul Dumont, *Éléments d'histoire de la philosophie antique* (Paris: Ed. Nathan, 1993) 641- 677.

ملاح فلسفة الشك انطلاقاً من مسار خصومي، كما أعلنّا في بداية المقدمة. ونهي المقال بالاشتغال على بعض ملاح تداعيات الرواية العربية لفكر الشك، مقارنةً بهيئات تلقي فلسفتي أفلاطون وأرسطو، ضمن نفس الفترة الوسيطة.

أولاً: الإرث المادي للشك

نشير أولاً إلى تداول اعتماد مصطلح الريبية في الإحالة على الشك، غير أنّ هذا الترادف الظاهر لا يُخفي وجود فرق، ولو جزئي، بين اللفظتين. فالريب من الريبة والظن والوهم الذي يترجم القلق والاضطراب، وقد تحيل هذه الألفاظ في مجملها على خلط في موضوعات الارتباب بين النفسي والقيمي والمعرفي.

بينما يفيد الشك التساوي في ترجيح الحكم، وهو نقيض اليقين الجازم، ليتصل الأمر بالمجال المعرفي، وبالنظر تحديداً في حركة العقل موضوع انشغالنا هنا. ولذلك اعتمدنا مصطلح الشك، ولم نستبعد أيضاً دلالات الريبية كما وردت في العديد من الدراسات¹ وبالجملة، يُعرّف عمل الشك بفعل أعدام اليقين، وهو ما سنأتي على بيانه في ثنايا المقال.

ونكتفي في هذا المستوى بعرض الإرث المادي للشك على سبيل الاختصار، نظراً لورود هذه الأمور مفصلة في العديد من الموسوعات وعند الكثير من المنشغلين بتاريخ الفلسفة.² وقد تعددت الروايات واختلفت حول التاريخ الحقيقي لنشأة فلسفة الشك التي ردت إلى السفسطائية وإلى السقراطية، غير أنّ مجمل القراءات

¹ نجد هذه التديقات اللفظية في لسان العرب، ابن منظور، ضبط نصّه وحواشيه، خالد رشيد القاضي، ط10 (بيروت: دار صبح، 2006)، مادّي ريب وشكك. ونحيل أيضاً على محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحدوح، إشراف رفيق العجم، ط10 (بيروت: مكتبة لبنان، 1996)، ج1، مادة الشك. واستعمل حمادي بن جاء بالله مصطلح الريبية في مقاله عن فلسفة الشك، "الريبية"، ضمن الموسوعة الفلسفية العربية، ط10 (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1988)، ج2، 688.

² عد في هذا السياق إلى هذه المواضع:

Sylvain Auroux (dr.), *Dictionnaire les Notions philosophiques* (Paris: P.U.F, 1990), matière «Scepticisme», T.2, 2309-2310.

الموسوعة الفلسفية العربية، ط10 (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1986)، مادة شك، ج1، 523؛ حمادي بن جاء بالله، "الريبية"، ضمن الموسوعة الفلسفية العربية، ج2، 668.

Brochard, *Les sceptiques*, 40- 60 ; Cossutta, *Le scepticisme*, 9, 10, 28.

اتَّجَهَتْ نحو نسبة الشكّ إلى بيرون Pyrrhon (توفي سنة 275 ق م).¹

تحدّد مع هذا الفيلسوف الظهور الفعلي للتيار الذي قدّم الشكّ على اليقين في فعل التأسيس الفلسفي. ماذا نملك عن بيرون؟ وما هو الإرث المادّي المتوفّر عن الشكّ؟

تعتبر الشّدرات هي السّمة المميّزة للإرث المادّي عن الشكّ الأوائل، بل وتلغى هذه المقاطع من النصوص مع بيرون مؤسس المذهب. فهو لم يترك مصادر مادّيّة تعبّر عن فلسفته لاعتماده منهج مشافهة شبه بنهج سقراط؛ كيف نقلت إذن فلسفة بيرون وقد تعمّد إغفال تدوينها؟

عرفت آثاره بطريقتين، من داخل المذهب ومن خارجه. أتى على بعض ملاح فكر بيرون الشكّي فلاسفة معاصرون له وفلاسفة لاحقون، سواء من ناحية الاعتراف والتقدير أو من ناحية الإهمال والتجاهل،² كما وصلت أهمّ مقوّمات تصوّراته عن الشكّ اعتمادا على بعض الموالين من تلاميذه ومريديه. تمّ تناقل أسس فلسفة بيرون ومنعت من الاندثار بواسطة الأتباع، وأهمّهم من جهة القبليّة التاريخيّة تيمون فيلونّيس Timon de Phlonte (توفي سنة 235 ق م).³

يعود إلى تيمون حفظ ذاكرة أستاذه، وتدوين أبرز ما ورد فيها، وإجمالا يرجع إليه الفضل في التعريف بأفكار معلّمه. وبدأ مع تيمون تحديدا التوثيق الفعلي لفكر الشكّ والنقّلة من نهج التّفلسف الشّفوي إلى طريق الكّابة. والمعّلم عن المؤرّخين تخيّر بيرون قصدا التّفلسف في هيئة محاورات ومجادلات شفهيّة مع أصدقائه وتلاميذه، ويرد ذلك في إطار محاربة كلّ أشكال الوثوقيّة بدءا برفض اعتماد الكّابة في الفعل الفلسفي.⁴

مثّل لذلك فعل التدوين مع تيمون لحظة حاسمة في تاريخ هذا المذهب، حيث تمّ التخلّي عن نهج الأستاذ

¹ ولد في حدود 365 ق م. وذكرت سيرته الذاتية باقتضاب في عديد المصادر والمراجع ومنها ما ورد في:

Notions philosophiques, Pyrrhonisme, T.2, 2129-2130.

² تشير الدراسات إلى أنّ أبيقور أشاد بفلسفة بيرون وهو من معاصريه، عد هنا مثلا إلى:

Cossutta, Le scepticisme, 28.

ونجد تجاهلا من سيسيرون للأسس المعرفيّة للشكّ البيروني مثلا ورد في كتاب:

Brochard, Les sceptiques, 60.

³ عاش بين سنتي (235-325 ق م)، عد في هذا الشأن مثلا إلى: Dumont, *Éléments d'histoire, 28*

⁴ نجد تفسيراً لعزوف بيرون عن الكّابة يُلخّص في تجنّب الربّي مخاطرة الدّفاع عن مواقفه في مقال بن جاء بالله،

”الريبيّة“، ضمن الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، 671.

وتخبر مسار مغاير يعتمد رمزية الكتابة كشكل من أشكال التعبير المستحدثة حينها عن فلسفة الشك. وترك تيمون في هذا الباب بالخصوص كتاب الصور Images، وفيه أشاد بالقيمة المعرفية والعملية لأستاذه بيرون.¹

ونشير في نفس السياق إلى دور ما يسمى بالأكاديمية الجديدة في تثبيت مذهب بيرون، وبالخصوص عمل أنسيديموس Aénésidème (القرن الأول: في حدود 80-60 ق م) أقوال بيرونية Pyrrhoniens Discours، الذي يعتبر ترجمة لأهم مواضع قول الشكّك في دحض المذهب الطبيعي وغيره من المذاهب التي وضعوها بين قوسين وعلقوا القول حول يقين مضامينها.² ويعود إلى أنسيديموس أمر التبويب المنهجي لحجج الشكّك الواردة عن المؤسسين الأوائل مع بيرون وتيمون، ويلهم عمل كل من: بيتانس أرسلياس

De Pitane Arcésilas (315-241 قم)، وكارنياد Carnéade (219-129 ق م).³

صيغت لاحقاً فلسفة الشكّك في هيئة واضحة المعالم ضمن أعمال سكتوس أمبيريقوس Sextus Empiricus. (نهاية ق1 وبداية ق2م) وضع هذا الرّبي المتأخر مذهب الشكّك في صيغتين متكاملتين، وردت الأولى ضمن كتاب تهافت الدغمائية (contre les dogmatiques) وفيها عرض للأسس العامة للمذهب. وتبلورت الثانية ضمن كتاب مقولات بيرونية (les esquisses pyrrhoniennes)، وتعبّر عن تعميم تطبيق منهج الدحض في مختلف مجالات المعرفة.⁴

نخلص في خاتمة هذا القسم التمهيدي من العمل إلى التالي:

ميزت الأعلام المذكورة مسار الشكّك في الفترة القديمة، فقد ظهرت هذه الحركة الفلسفية مع بيرون،

¹ ورد الحديث عن الدور التاريخي لتيمون ومصنّفاته حول المذهب الشكّي في الكثير من المواضع ونورد هنا ما ذكر عند: Cossutta, *Le scepticisme*, 58-60.

² تقلّ الإشارات عن حياة أنسيديموس ومنها تواريخ الميلاد والوفاة، نجد إحالة على ذلك في المرجع السابق، 78.

³ ينقسم الشكّك وفق المؤرخين إلى القدماء والمحدثين بتوسط ما سمي بالأكاديميين الجدد. ورد هذا التقسيم للشكّك ضمن Notions philosophiques، ج.2، مادة Pyrrhonisme، 2129. ويعترض Brochard على هذا التقسيم بالنظر إلى مناقضته لما ورد في النصوص، ويقدم تقسيماً آخر بحسب طبيعة الموضوعات المميزة لكلّ حقبة، انظر في كتابه:

Les sceptiques grecs, 35-37.

⁴ ينتمي سكتوس أمبيريقوس إلى الشكّك المتأخرين ولعلّ ذلك ما يفسّر توفّر مؤلفاته مقارنة بمصنّفات الشكّك الأوائل التي بلغتنا في غالبها مبتورة، والملاحظ هنا غياب تحديدات دقيقة عن حياة أمبيريقوس رغم ترك إرث فلسفي مكتوب. ونشير إلى إمكان

الإفادة في هذا الخصوص من كتاب: Cossutta, *Le scepticisme*, 92-94.

وصيغت مع تيمون وبلغت أوجها مع أمبريكوس. ويعود إلى تيمون أمر حفظها وإلى أمبريكوس مسألة صياغتها في هيئة مفصلة يحكمها الترابط النسقي الواضح والمتسلسل.

تأتى للفيلسوف المتأخر ذلك، نتيجة تلاحق رواد هذا التيار وما تبعه من زيادات وتوضيحات وتنقيحات، مثلت كلها مادة ثرية حولت لسكتوس أمبريكوس التعبير عن فلسفة الشكك الأوائل بصورة أوضح، واتخذ بذلك موضع الناقد في قراءتها نتيجة فعل التعديل والحذف والزيادة الذي أحقه بنصوص الأسلاف.

ثانيا: في بنية وطبيعة التفلسف عند الشكك في القديم

يعبر فكر الشكك عن فعل التفلسف الأصيل بما هو السعي إلى البحث في ممكآت العلم بالأشياء والموجودات، ولا يختلف في هذا المستوى نهج الشكك عن غيرهم من المذاهب باعتبار التفلسف في جوهره انعكاس للبحث الدائم عن الحقيقة، لكن يكمن الخلاف أساسا في طبيعة النتائج المحصلة عند كل شك.

ينتهي شك الوثوقين إلى إقرار القدرة على بلوغ الحق بينا، ويعلن شك الشكك الإخفاق من كل الوجوه بل ويطعن هؤلاء بشدة في هذا الوثوق. والسؤال المعلن هنا هو لماذا يقف الشكي دون بلوغ اليقين المعرفي؟ هل يعود ذلك إلى اختلاف في الأدوات المعتمدة أم في هيئات استعمالها؟

تعتبر الحقيقة عند الشكي مطلبا لا يتوانى في توظيف كل قواه لبلوغه، لكن فضيلة هذا الأمر لا تبرر عنده التسليم السريع والبات في النتائج، وتقضي حذرا دائما وترثيا في الحكم لا ينتهي. ودفع ذلك الشكي إلى مراجعة جذرية لبنية وطبيعة المعرفة بشكل عام، ووضع محصلة فعل العقل تحت المساءلة من كل الوجوه؛ فلا يعود فيها موضع للمسلّمات الثابتة.

وضعت بذلك كل المكتسبات النظرية بين قوسين، وهو ما جعل الشكك في مواجهة مع كل المذاهب الفلسفية سواء منها الموجودة أو التي لم توجد بعد، باعتبار عملهم يتجه بالنقد إلى أسس التفلسف ذاتها. فالأمر لا يتصل بمجرد مناظرات أو سجالات مباشرة مع غيرهم من الفلاسفة، بل يرتبط بمهمة تقويض الأصول التي تمنع جواز المعرفة في هيئتها الكلية والصارمة والواثقة. ويتحول هدف الشكك من البناء إلى التخلص من كل أنواع الوثوقية، وسلب المعرفة يقينها الذي لا يصمد أمام أقصى درجات الشك.

يقتضي الإمساك بهذه البنية الفريدة (تؤخذ الفرادة هنا في مقابل التضاد مع كل فلسفة)، المقارنة مع

العديد من المذاهب الفلسفية، وهو عمل قد تكفل بإنجازه جملة من المنشغلين بتاريخ الفلسفة ممن أتينا على ذكر بعضهم في موضع سابق من هذا العمل.¹

نكتف هنا بتوضيح بعض ملامح فكر الشكك الأوائل انطلاقاً من تمثّل الخصومات غير المعلنة مع غيرهم من المذاهب.² ويمكن تبويب هذه الخصومات إلى صنفين متصلين، صنف أول يتصل بأدوات المعرفة، وصنف ثان يرتبط بمواد المعرفة.

1. الخصومة المتصلة بأداة المعرفة

ننبّه في هذا المستوى أننا نحيل بالأدوات تحديداً على العقل وذلك لسببين منهجي ومعرفي. يقوم السبب الأول على مساندة التلاؤم مع طبيعة المشكل الذي نشغل عليه، وهو النظر في صورة العقل عند الشكك. ويتكوّن السبب الثاني أساساً من اختزال المسائل الخلافية بين الشكك ونظرائهم من فلاسفة الفكر القديم في ما يقدمه العقل، دون باقي أدوات الإدراك الإنساني من إحساس وتخيل. ويتمحور المشكل المطروح في التالي: هل يمكن للعقل تقديم معرفة تتفوق من جهة النجاعة والمنزلة على ما تمنحه الحواس؟ وهل يجادل الشكك تباعاً حول قيمة العقل في ذاته، أم يعترضون على منحه قدرة ضمان اليقين المطلق؟

اعتلى العقل مكان الصدارة بين الأدوات، واعتبر الأشراف باعتبار طبيعة وظائفه مقارنة بباقي قوى النفس. ويُعهد إلى العقل كما هو معلوم أمر التركيب والتفصيل والتحليل والتفكيك لمجمل الانطباعات الحاصلة عن

¹ انظر تحديداً إلى ما ورد في هذا المقال، "صورة العقل عند الشكك".

² تحيل الخصومة في لغة العرب على الجدل الحاصل بين خصمين، وهو ما لا ينطبق على الشكك الذين لا يتعمدون الجدل بل ويتجنبونه بخلاف السفسطائيين الذين يطلبونه. عد في هذا الشأن إلى لسان العرب، مادة خَصَم، ويتضح من خلال العودة إلى كشاف اصطلاحات الفنون، مادة سفسطة، أن السفسطائية مذهب فلسفي يقوم إجمالاً على إنكار الحقائق الثابتة. ونقف في هذا المصدر على انقسام السفسطائية إلى فرق، ومنها فرقة الأدرية التي تعتمد الشك في إبطال العلم وهو ما يحيل على اعتماد بعض مبادئ الشكك، وفرقة تؤثر العناد والغلط والتويه وهي التي عرفت نسبتها إلى السفسطائيين. وعد في نفس السياق إلى الموسوعة الفلسفية، مادة سفسطائية. ونجد هذا التقسيم للسفسطائية إلى فرق الأدرية والعنادية والعندية في كتاب نجر الدين الرازي، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكام والمتكلمين، تقديم وتعليق سميح دغيم (بيروت: دار الفكر اللبناني،

1992)، 40. وانظر كذلك في مقدمة كتاب: Brochard, *Les sceptiques grecs*, 12-17.

قوى الحسّ والخيال، ومنها تُستنبط التصورات والتصديقات التي نملكها عن الموجودات.¹ وليس المجال مناسبة لتفصيل القول في هذه المشكلات، ولكن حسبنا من عرضها بيان طبيعة هذه التصورات والتصديقات الذهنية في علاقة بالموجود.² وتظهر خصوصية العقل هنا في تحصيل العلم بالموجود بنسب متفاوتة الصّدق وفق طبيعة الموجود ذاته. يقول أرسطو متحدّثا عن إدراك العقل: "إذا كان موضوعه الماهية بمعنى حقيقة الشيء، فهو صادق دائما."³

ينتهي بذلك المعلم الأول عند إقرار التّطابق التام بين الماهية والوجود في مستوى التصورات الذهنية، وقدرة العقل من ثمة على إدراك المعاني المجردة عن الهيولى.⁴ وتمثّل مجمل هذه الأمور مواضع خلاف جوهرى مع الشكّ، وما يعتبر أصولا عند الوثوقيين يفتقد إلى كل صلابة تأسيسية عند مخالفيهم. يقول يوسابيوس القيصرى (Eusèbe de Césarée) في هذا الاتجاه "يكون من الضروري الانطلاق من الامتحان النقدي للملكة الإدراك عندنا."⁵

ينبني فعل العقل على تسلسل منطقي بين عناصر مترابطة بإحكام، وذلك ما يترجم قوّة فعل هذه الملكة. غير أن الشكّ يعتبرونها صرامة داخلية، ملزمة للعقل دون سواه، وعليه لا يصحّ منطقيا إلحاق هذا التسلسل الداخلي والخاص بأشياء خارجة عنه ثمّ نندفع إلى الجزم بيقينها. يُطرح المشكل إذن، عند إلصاق الحاصل الذهني المجرد بالأشياء الخارجية، ولا يتصل البتّة بحركة العملية الداخلية للذهن.

ويرجع أصحاب المذهب البيروني هذه المزالق إلى الخلط بين فعل التمثّل الحسيّ للأشياء والذي لا يمكن

¹ نجد هذا الترتيب في القوى وتميّز العقل بينها عند أرسطو في، كتاب النفس، نقله إلى العربية أحمد فؤاد الأهواني، راجعه عن اليونانية، الأب قناتي، ط. 2 (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1962)، 108-109.

² تنتمي مصطلحات التصور والتصديق إلى المنطق، "فالتصديق التام هو اليقين، والتصوّر التام هو تصوّر الشيء بما يُلخّص ذاته بنحو ما يُلخّصه، وذلك أن تصوّر الشيء بما يدلّ عليه حدّه." الفارابي، كتاب البرهان، تحقيق ماجد فخري (بيروت: دار المشرق، 1987)، 20.

³ أرسطو، كتاب النفس، 116.

⁴ يمكن الإفادة بخصوص الفعل الخاص بالعقل من قول ابن رشد في القوّة الناطقة ضمن، تلخيص كتاب النفس، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1950)، 76-77.

⁵ يقول عنه Dumont في كتابه *Éléments d'histoire* أنّه من آباء الكنيسة وعاش في حدود 313 ق م، نقل أهم ما ورد عن تيمون ومعلّمه بيرون بوساطة أرسطو كلاوس، عد تحديدا إلى 645.

إنكاره، وبين تأويلنا له بما هو عملية ذهنية خالصة وليس انعكاسا لحقيقة الواقع أو على الأقل لا نملك تأكيد ثبوت واقعيته، ومنه نتأتى علل وشرعية الشك. يقول سكتوس أمبريقوس في هذا الخصوص:

نقوى على تمثّل حلاوة العسل ونقبلها باعتبارها صادرة عن الحسّ، لكن نسبة هذه الحلاوة إلى العسل بالذات أمر لا يقترن بالحسّ بل بتمثّلنا للعسل. وحببنا في الاعتراض على هذه التمثلات لا ترجم رفضنا للأشياء الحسية، بل تكشف عن حدود الوثوقية.¹

عمل بذلك شكاك المدرسة البيرونية على رفع الشرعية عن التطابق المزعوم بين التصورات الذهنية والظواهر الخارجية، وبقي ما نعمله في أذهاننا انعكاس لانطباعاتنا عن الأشياء. وتظلّ من ثمّة، حقائق الموجودات عسيّة عنّا ولا يمكن الجزم بامتلاكها، ورغم النجاح المبرر للعقل في التفكيك والتفصيل والربط والاستنباط والاستنتاج، لا نقوى بواسطته إلا على إدراك ظواهر الأشياء حسيّا.

وبالجملة، يقوم مذهب بيرون على إسقاط الثقة في العقل والانتفاء إلى الارتياب في ممكاته، ويعترض بتعبير أدق على غاية تحصيل الحق التي أوكلت إلى هذه الملكة. وعليه لا يتصل نقده بالوظيفة البحثية للعقل، بل بالقدرة التحصيلية التي نسبت إليه.²

2. الخصومة حول مواد المعرفة

تعتبر الخصومة الثانية سلبية الأولى، ودحض مواد المعرفة نتيجة ضرورة عن الإطاحة بأسس تحصيلها. وتحتزل هذه الخصومة مجمل اعتراضات الشكّك على العلوم التي تتخذ هذه المواد موضوعات لها. ووجه الدحض أوّلا إلى العلوم الأدوات أو ما يعرف بعلوم الآلة والمراد اللغة والمنطق، وهي التي تعيننا في هذا المستوى نظرا إلى طابعها الصوري.

نبدأ بعلم المنطق، وينكر بيرون وأتباعه الاعتقاد في صلابة القضايا المنطقية، نظرا لانطلاقها من مقدّمات جزئية وانتهائها إلى نتائج كلية. ولا يمكن وفق ذلك إقرار صدق هذه القوانين العقلية والاعتناء بصرامتها والحال

¹ ورد هذا النص لسكتوس أمبريقوس في كتاب: Dumont, *Éléments d'histoire*, 649.

² نشير إلى بيرون باعتباره مؤسس مذهب الشكّك قديما دون وجود نصوص تحيل على فلسفته، ولكن أفكاره ترددت على السنة تلاميذه من تيمون إلى سكتوس أمبريقوس كما ذكرنا في القسم الأول من العمل.

أنها مبنية على مبرهنات حاملة لإعدام الصدق وقابلة للشك. كما أنّ الضرورة التي تميز القضايا المنطقية وتعبّر عن قوانين العقل محكومة بالربط بين مسلمّات افترضنا صدقها مسبقا وبين مبرهنات ناتجة عنها، وعليه فبادئ الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع، والتي أعلنها أرسطو معيارا للحقيقة، لا تملك صلابة كافية أمام افتراض عدم صدقها، وما يؤدي إليه ذلك من انهيار فعل العقل برمته.

يقوم منطق الشكّ على قلب بنية المقولة، بمعنى افتراض الانطلاق من مقدمات غير يقينية لا نستطيع الجزم بصحتها مثلها لا نقدر على تجاوز إمكان الشك فيها. وترجم هذه الأرضية ارتقاء العقل إلى ممارسة شك منهجي فيه تجاوز لهيئات الارتباب الانطباعي البسيط.¹ اعترض بيرون من جهة أخرى، وفق رواية تلاميذه، على البنية الداخلية للغة. واعتبر أنّ رابط الضرورة بين الاسم والمسمى يحيل وجوبا على ضرب من التطابق الوهمي، ولا تعبّر الأسماء إلاّ عن بعض الوضعيات والأحوال لا غير، كما تُفقد الأسماء وكذلك التمثلات التي نحملها حولها من ضرورة اللغة.

ولعلّه من العسير تعويض الشئ بالقول، واختزال كثافة الوجود في وحدات لغوية، ومحال أيضا نقل الضرورة التي تحكم الموجودات إلى مستوى الكلمات. ونوّه في هذا الباب بعمل حمادي بن جاء بالله حول موقف الشكّ من مسألة اللغة، ونورد ما ذكره عن أصحاب المذهب بخصوص محدودية اللغة:

فليس للغة صلة مباشرة بالوجود، بل إنّ بينهما بونا شاسعا لا يطويه تعسفا إلاّ الوثوقي. إنّنا ندلّ فعلا على الأشياء بالكلمات ولكن الكلمات ليست الجواهر ولا هي الموجودات، وبالتالي ليست الأشياء هي التي نبلّغها إلى من يستمع إليها وإنّما نبلّغه قولاً يختلف عن الجواهر.²

تيسّر مجمل هذه الاعتراضات حول بنية اللغة تفسير بعض دواعي عزوف بيرون عن الكتابة، وأسباب تفضيله التعبير عن أفكاره بغير طريق التدوين، بل وميله إلى الصمت الذي تخيّر على المجادلة. وكلها إشارات تحيل على عقم الأداة وعجزها عن قول حقيقة الوجود. تتحوّل من ثمة اللغة الشعرية إلى بديل للتعبير عن تصورات الشكّ، والأكثر ملائمة لطبيعة مذهب مضاد لكلّ وجوه التمنييط في استعمال اللغة.

¹ عد في هذا المستوى إلى تعليق Cossutta، ضمن كتابه، 45، *Le scepticisme*.

² عد إلى مقال "الريبيّة" ضمن الموسوعة الفلسفية العربية، 673. وتظهر خصوصية هذه الدراسة وفق ما نرى في توضيح بعض قراءات الفلسفة الحديثة للفكر الريبي، على غرار تصور هيقل لتاريخية مسألة اللغة.

يستجيب القول الشعري إلى مقتضيات الفلسفة الشكّية، وهو تعبير عن استعمال اللغة في غير سياقها النظامي وخارج ضوابطها الصّارمة. ويمكّن الشعر من ترجمة مضامين غير ثابتة اليقين في هيئات أكثر تحرراً وفي صور غير متناهية وهو ما يتلاءم مع أسس المذهب الربّبي.¹

يتّضح من خلال هذا العرض الموجز للخصومات تعامل بيرون الصّارم مع العقل، فقد أخضعه إلى نقد أصيل. وأدّى ذلك إلى رفض كل أشكال الوثوق، وتجاوز وضع الاطمئنان المطلق إلى أداة العقل. يقول سكوتوس امبريقوس في هذا الخصوص: "يتعلّق غرضنا الأقصى ببلوغ تفنيد الوثوقيّة."² لكن ما الذي انتهى إليه بيرون وأتباعه بعد هذا الهدم؟

يسعى الشكّك إلى تجاوز الوثوقيّة في كلّ وجوها، سواء باتجاه إثبات الصّدق أو باتجاه إثبات النّفْي. ويعتمدون الظنّ في صدق الأمر من جهة، ويعلنون احتمال نقيضه من جهة أخرى، وينتهون من ثمة، عند وضع "تعليق الحكم (époque) وهو توقّف الذّهن فلا نملك نفي أو إثبات أيّ شيء."³

نصل إلى عدم الحسم في الحكم لصالح النّفْي أو الإثبات نتيجة تكافؤ الأدلّة في المنزلتين. ويتوقّف الذّهن في هذا المستوى عن الجزم وترجيح إقرار مخصوص، ويكون بذلك الذّهن حرّاً لأنّه تخلّى عن الانشداد إلى معطى دون آخر.

يمّ في هذا المرحلة تجاوز لحظة الاضطراب الناتج عن الشكّ، والانتقال إلى لحظة استقرار وصمت الذّهن، وهو المنعرج الذي يوصل المرتاب إلى مرتبة الأتراكسيا حيث ينال راحة ورضى تام في النّفْس.⁴

وتختزل هذه الأطوار عند الشكّك في التّالي: "يقول تيمون ندرك أولاً هدوء النّفْس، ثمّ نبغ الأتراكسيا،

¹ انظر في هذا الخصوص ما ورد عند 32,35 *Cossutta, Le scepticisme*.

² *Sextus Empiricus, Hypotyposes, I, 12*، ورد ضمن كتاب *Dumont, Éléments d'histoire*, 648-650.

³ *Sextus Empiricus, Hypotyposes, I, 8* ذكر في كتاب *Dumont, Éléments d'histoire*, 648.

⁴ يفيد مصطلح الأتراكسيا السكينة والطمأنينة التي تترجم حال السعادة التامة، وهي غاية التفلسف عند الكثير من المذاهب الفلسفية اليونانية كالشكّك والرواقية والأبيقورية. يمكن العودة في هذا الصدد إلى جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية (تونس: دار الجنوب للنشر، 2004)، 16.

ويضيف أنسيديموس حصول اللذة، وهذه هي المبادئ الرئيسية لفلسفتهم.¹

نخلص في هذا المستوى إلى نتيجتين متصلتين:

- تقوم بنية فلسفة الشكّك على النقد وهو الارتباب التامّ في كل ما نعلمه. ويحيل ذلك على زعزعة صورة العقل الواثق من يقينه ومن علمه بالأشياء، ويعكس أيضا سعيًا إلى إعادة بناء هذه الصورة وفق معايير جديدة تؤكد أصالة العقل، وبحثا عن مقومات معرفة لا يعترها الشكّ من أيّ وجه.²

- لم تفضي إدانة الشكّك للعقل إلى حلّ معرفي، بل انتهت بهم إلى نتائج من طبيعة عملية، وصاحب تهافت اليقين المعرفي تأكيد لغاية عملية. يصبح الحلّ في تجاوز محنة العقل هو تحريره من إطلاقية الوثوق من جهة، والرّضى باستحالة اليقين من جهة أخرى.

دفعتنا هذه الأمور إلى مواصلة التساؤل حول وثوقية العقل ضمن لحظات لاحقة من تاريخ الفكر الإنساني. فهل نجد في الفلسفة العربية الوسيطة ارتدادا لهذه الصورة التي عرضها الشكّك قديما عن العقل؟ وماهي الرواية العربية عن الفكر الفلسفي للشكّك؟ وكيف تمثل الفكر الإسلامي الوسيط فلسفة الشكّك وهو محكوم بإبستمية مضاعفة الوثوق دينيا وفلسفيا؟

ثالثا: الرواية العربية لفلسفة الشكّك

يعسر العثور على آثار مادية ظاهرة لأوائل الشكّك في الفترة الوسيطة، انطلاقا من ندرة المصادر التي أعلنّا عنها في بداية العمل نظرا إلى انصراف بيرون، مؤسس المذهب، عن فعل التدوين.³ ولعلّ ذلك، ما يفسّر شخّ الأبناء حول عملية نقل مصادر هذا الفكر الفلسفي اليوناني إلى اللسان العربي، سواء بطريق

¹ ونعرض الترجمة الفرنسية للنص:

“Pour peu que nous connaissions ces dispositions, nous connaissons, dit, Timon, d'abord l'aphasie, puis l'ataraxie, et, dit Aenésidème, le plaisir. Telles sont les principales têtes de chapitres de leur philosophie.” Eusèbe, *Préparation évangélique*, cité par Dumont, *Éléments d'histoire*, 645-646.

ونجد كذلك نصا لسكتوس أمبريقوس حول تعريف تعليق الحكم والغاية الأخلاقية من بلوغه عند الشكّك، ضمن نفس المرجع، 651.

² يمكن الاستفادة في هذا المستوى من تعريف حمادي بن جاء بالله للفلسفة “الريية”، ضمن الموسوعة الفلسفية العربية، 668.

³ عد إلى القسم الأول من هذا المقال والذي عنوانه بالإرث المادي للشكّك.

الترجمة، أو في هيئة شروح بيّنة، أو جوامع وملخصات حوله، ضمن أبرز كتب التراجم.¹ وقد تحدّث بعض الباحثين في هذا الخصوص، وبينوا ضعف حضور نسق فلسفي واضح لمدرسة الشكّك في الفكر العربي الوسيط على خلاف غيرها من المدارس الفلسفية كالرواقية والأبيقورية، وتوجد، في هذا الاتجاه، إشارة لطيفة إلى بيرون تحت اسم فورون (Furun) ضمن رسالة الفارابي (ت. 339هـ/950م) حول ما يتقدّم تعلم الفلسفة.²

يقول الفارابي في هذه الرسالة: "وأما الفرقة المسماة من الآراء التي كان يراها أصحابها في الفلسفة فهي الفرقة التي تنسب إلى (فورن) وأصحابه وتسمى (المانعة) لأنهم يرون منع الناس من العلم."³ تختصّ هذه الفرقة وفق الفارابي بامتناع المعرفة، لذلك أتى على ذكرها ضمن الباب الأول من الرسالة وقد اعتنى فيه بعرض الأمور التي نحتاج الإحاطة بها قبل المعرفة، وأولها أسماء الفرق التي سبق لها الاشتغال بالفلسفة من جهة واحدة باعتبار فلسفة المعلم الأول تعبيراً عن المعرفة الحقيقية.⁴

تتضح بذلك مكانة المانعة أو الشكّك موضع انشغالنا هنا، فهي الفرقة التي لا يقدم أصحابها معرفة، بل تشريعاً لاستحالتها، وفق الفارابي. واكتفى لذلك بذكرها على سبيل الاختصار وترتيبها خارج الفلسفة التي وضع أسسها

¹ ذكر ابن التديم أنّ أول من تكلم في الفلسفة بوثاغورس وسقراطيس، ثم أتى على ذكر أفلاطون وأرسطو، وتغيب عنده الإشارة إلى مدرسة الشكّك في الفكر اليوناني القديم. الفهرست، ضبطه وشرحه وعلق عليه يوسف علي الطويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996).

² نذكر مثلاً دراسة فان إس التي أحال فيها على وجود إشارة عند الفارابي عن الشكّك، وبين أيضاً تردّد أصداء عن رؤاهم عند بعض المتكلمين والأدباء:

Josef Van Ess, "skepticism in Islamic religious thought," in *God and Man in Contemporary Islamic thought*, ed. Charles Malik, Proceedings of the philosophy symposium held at the American university of Beirut, 6-10 February 1967 (Beirut: Centennial Publications 1972), 85.

³ أبو نصر محمد الفارابي، مبادئ الفلسفة القديمة، مجموعة فيها كتاب، ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم فلسفة أرسطو، وكتاب عيون المسائل في المنطق ومبادئ الفلسفة، عنيت بتصحيحه ونشره المكتبة السلفية (القاهرة: مطبعة المؤيد، 1910)، 4.

وزى أنّ هذه الإشارة غير كافية لإثبات اهتمام الفارابي في هذا الموضوع بالمدرسة الشكّكية، فقد وردت عنده في إطار عرض مختصر لتاريخ الفكر السابق لأرسطو.

⁴ يقول الفارابي في مفتتح رسالة ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم فلسفة أرسطو: "الأشياء التي يحتاج في تعلمها ومعرفة قبل تعلم الفلسفة التي أخذت عن أرسطو" يختزل العلم إذن في فلسفة أرسطو، وهي ترجمة للمعرفة الحقيقية والتامة في وجوهها المختلفة.

المعلم الأول ضمن الرسالة المذكورة.

وتبقى إشارة الفارابي ضمن ما ينبغي أن يقدم في تعلم فلسفة أرسطو غير كافية في الحكم على انشغاله بمذهب الشكك من عدمه، ولا يصحّ الجزم بذلك وتعميمه على كامل مصنّفاته. فقد استعمل الفارابي مثلاً، لفظ المشكّكة ضمن معرض حديثه عن الحاجة إلى المعاني العامية الخاصة بكلّ أمة، والسابقة في مجملها للمعاني الفلسفية، التي اعتمدت في صياغتها ألفاظ من جنسها عامة ومشتركة.¹

وذكر المعلم الثاني الشكّك عند تصحيح الغلط الحاصل والمعمّم حول مصطلح السفسطة، انطلاقاً من العودة إلى جذوره اليونانية ليبينّ إحالته تحديداً على التويه والمغالطة. ولعلّه من المهم هنا الانتباه إلى تمييز الفارابي للسفسطائيين عن القائلين بوجود إمكان المعارف، في إحالة على الفرقة التي تتميز بإنكار المعرفة وتُعرف بالمشكّكة باعتبار نفيها كل قدرة على بلوغ اليقين.²

واستعمل في نفس السياق، لفظ التّحير الذي يفيد حصول شدة الحيرة بين اعتقادين متقابلين ومتساويين في البرهنة، يكون الإنسان هنا في وضع تردد بين الأمر وضده، ويصعب عليه بلوغ الحكم الجازم.

والمعلوم، نسبة مجمل هذه الخصوصيات إلى مذهب الشكّك، غير أن الفارابي أوردتها باعتبارها أحد الأغراض المعتمدة في صناعة السفسطة.³ ويتّضح بذلك أنّ الفكر الشكّي مبثوث خاصّة في ثنايا المصنّفات

(1) أتى الفارابي على أصناف المعاني، وذكر أنّ منها المغلّطة ومنها العامية، وتقال بألفاظ وأسماء شبيهة بالمعاني الفلسفية، وتحتاج إليها كلّ أمة في التعليم السابق لتعلم الفلسفة، يقول: "وهذه غير المتّفقة أسماءها وغير المتواطئة أسماءها وهي متوسّطة بينهما وقد تسمّى المشكّكة أسماءها؛ كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، ط. 2 (بيروت: دار المشرق، 1990)، 161. وليس في قول الفارابي ما يحيل على مذهب الشكّك رغم اعتماد لفظ المشكّكة.

(2) يقول الفارابي في تعريف السفسطائي: "وكلّ من اقتنى القدرة على استعمال ما يُظنّ به بسبب ذلك أنّه ذو حكمة وذو علم من غير أن يكون كذلك بالحقيقة فهو يسمّى السُفسطائي. وكثير ممّا لا يعرف هذا الاسم فيظن أن سفسطائي لقب رجل أنشأ مذهبا ما ونسب من ذهب ذلك المذهب إليه. وظن آخرون أن هذه النسبة إنّما تلحق من مجد المعارف، وليس واحد من هذين الظنين حقاً." الألفاظ المستعملة في المنطق، تحقيق محسن مهدي، ط. 2 (بيروت: دار المشرق، 1968)، 105.

(3) يذكر الفارابي أن الصّناعة السفسطائية غرضها في المخاطبة ستة أشياء منها التّحير، "وهو أن ينقل ذهنه من أحدهما إلى الآخر ومن الآخر إلى الأول ومن الأول إلى الآخر حتى يتساوى القولان اللذان يلتزمان كلا المتقابلين في القوة، وحينئذ تعرض حيرة." فلسفة أرسطو ليس ومراتب أجزائها والموضع الذي منه ابتداء وإليه انتهى، تحقيق محسن مهدي (بيروت: دار مجلة شعر، 1961): 81.

المنطقية عموماً، وتحديدًا ضمن الجزء المخصص للمغالطة ونقيض البرهان اليقيني.¹

استعاد المعلم الثاني إذن، إرث الشكّك، وإن على جهة السلب، حيث نظر في تصوّرات منكري المعرفة باعتبارها مقابلة للقول اليقيني الثابت ومعادية ليقين العقل، وقد أشار إلى المذهب في هيئة مضمّنة في عديد المواضيع التي أتينا على ذكرها. ويمكن القول انطلاقاً من أتمودج المعلم الثاني، أن مذهب الشكّك لم يحظ في الفكر الوسيط بنفس الدرجة من العناية التي ميّزت غيره من المذاهب المؤسّسة لوثوق العلم، وتم الاشتغال عليها شرحاً وتلخيصاً كالأرسطية والأفلاطونية.

ونسعى من جهة أخرى، في إطار بحثنا عن ممكّات تأثير الشكّك في الفترة العربية الوسيطة إلى الوقوف عند بعض تداعيات تصوّراتهم خارج الفلسفة، والسعي تحديداً في فهم كيفية توظيف آثار من رؤاهم ضمن العلوم المستحدثة في الملة كعلم الكلام.

ونعتمد في بيان ذلك على جهة الاختصار، بعض آراء المشتغلين بمذاهب المتكلمين، ونذكر منهم ما ورد عن ابن حزم الظاهري (ت. 456هـ/1064)² من قول بين فيه حضور فكر الشكّك عند المتكلمين، وفق هيئات مختلفة اجتمعت في مجملها على مبدأ الإنكار: "ذكر من سلف من المتكلمين أنّهم ثلاثة أصناف: صنف منهم نفى الحقائق جملة. وصنف منهم شكوا فيها. وصنف منهم قالوا هي حقّ عند من هي عنده حقّ، وهي باطل عند من هي عنده باطل."³

اعتُبرت، في هذا الاتجاه، فلسفة الشكّك ضرباً من القول السفسطائي المجاور للحقّ، ولذلك نسب إليهم ابن حزم وغيره من اشتغلوا بالمدونة الكلامية، صفة إبطال الحقائق وهو ما أخرجهم من دائرة المعرفة على جهة التحقيق، وامتنع من ثمة عن الردّ على أقوالهم في بعض ما ذهبوا إليه.⁴

¹ يمكن العودة في هذا الخصوص مثلاً إلى كتاب شرائط اليقين، وفيه أتى الفارابي على حدود العناد في إزالة العلم حين تتوفر الشروط اللازمة لليقين، تحقيق ماجد نخري (بيروت: منشورات دار المشرق، 1987)، 103-104.

² ابن حزم الظاهري الأندلسي، المولود بقرطبة (384هـ - 456هـ)، انظر بخصوص سيرته إلى مفتتح كتاب الفصل في الأهواء والملل والنحل، تحقيق محمد علي صبيح (القاهرة: مكتبة السلام العالمية، 1348)، ج. 1: 3.

³ كتاب الفصل في الأهواء...، ضمن باب الكلام على أهل القسم الأول، وهم مبطلو الحقائق وهم السفسطائيّة، ج. 1: 14.

⁴ نذكر من عرض لآراء المتكلمين وحججهم نخر الدين الرازي، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين.

وانتهى ابن حزم عند اعتبار الشكّاء فرقة سفسطة تدّعي المعرفة دون امتلاكها، أو تبطلها لعدم الوثوق في أدوات إدراكها وهي الحواس والعقل. وورد ردّه عليهم من جنس القول السفسطائي القائم على هيئة جدال متناسق ولكنه فارغ من كلّ مضمون مخصوص. يقول ابن حزم في هذا السياق:

ويقال للشكّاء منهم أشكّكم موجود صحيح منكم أم غير صحيح ولا موجود، فإن قالوا هو موجود صحيح منّا أثبتوا أيضا حقيقة ما، وإن قالوا غير موجود نفوا الشكّ وأبطلوه، وفي إبطال الشكّ إثبات للحقائق أو القطع على إبطالها.¹

يكشف هذا القول لابن حزم منزلة الشكّاء في الفترة الوسيطة، فهم من الفرق المنكرة للحقّ استنادا إلى أدلّة عمادها المجادلة الصوريّة، وأدرج لذلك التعامل معهم في باب الدحض والإنكار العام، رغم مناقشة بعض أدلّتهم وإبطالها استنادا إلى الحجج المنطقيّة.²

يتّضح من جهة أخرى استعمال بعض الفرق الكلاميّة لقول الشكّاء، والإفادة تحديدا من قولهم بمبدأ تكافؤ الأدلّة. ونحيل في هذا المستوى مثلا على فرقة الباطنيّة، التي تعتمد حيلة التشكيك في باب التعليم.

يبدأ أصحاب هذه الفرقة التشكيك في الحكمة الشرعيّة وخلق العالم والإنسان، وإجمالا زعزعة كل أضرب اليقين العقلي. والانتها من ثمة عند ضرورة عدم التعويل على الرأى والأخذ المباشر عن الإمام المعصوم. تتحوّل وظيفة الشكّ مع الباطنيّة إلى طريق لإرباك يقين الخصم وهو المنهج الذي اختص باستعماله السفسطائيّة، واعتبره أبو حامد محمد الغزالي (ت505هـ/1111م) "مبدأ ظاهره الرّفص وباطنه الكفر المحض".³

وإجمالا، يمكن القول أنّه قد وقع اعتبار فكر الشكّاء ضمن الفترة العربيّة الوسيطة، وتوظيف ما ورد فيه لتمييز العلم اليقيني عن كل زيف، واستثمار أطروحاته القائمة على الإنكار في بناء منهج الفكر الواثق. ولعلّ مسار الغزالي يعكس حصول نفع من منهج الشكّاء في مستوى بناء المعرفة، فقد اعتمد منهج الشكّ قصد بلوغ حقيقة أكثر يقينا ومعرفة أكثر وثوقا. وانشغل بتحرير العقل من كل وجوه المعرفة المسبقة المحصّلة بأدوات الحسّ والوقوف عند

¹ كتاب الفصل في الأهواء...، ضمن باب الكلام على أهل القسم الأول، وهم مبطلو الحقائق وهم السفسطائيّة، ج.1، ص.14.
² ورد كذلك في كتاب المحصّل حول كيفية الرد على لا تنهي منهج الشكّ عندهم: "واعلم أنّ الاشتغال بالجواب على هذه الشبهة يحصل غرضهم على ما قرّره في كلماتهم، فالصواب أن لا نشغل بالجواب عنها". ص.37.
³ الغزالي أبو حامد، فضائح الباطنية، حققه وقدم له عبد الرحمان بدوي (الكويت: مؤسسة دار الكويت الثقافية، 1969)، ص.37.

محدودية العقل باعتبار العلم الحقيقي يقوم على القطع مع كلّ أضرِب الشكّ.

يقول الغزالي في وصف طريقه إلى المعرفة: "فلعلّ وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلّى كذب العقل في حكمه، كما تجلّى حاكم العقل فكذب الحسّ في حكمه، وعدم تجلّي ذلك الإدراك لا يدلّ على استحالته."¹ لا ينتهي الغزالي إذن إلى إبطال العلم نتيجة نقد العقل، بل أكّد وثوقه بالمعرفة نتيجة إقرار مصدر آخر يتجاوز العقل. ونرى في ذلك اقتراباً من المشاهدة العرفانية عند ابن سينا، ونسوق هذا الأمر بتحفّظ باعتبار الخصومات الكثيرة القائمة بين الفيلسوفين.

استعمل وفق ذلك الغزالي نهج الشكّك وخالفهم في طبيعة النتائج، فلهم عمليّ أبقى العلم في وضع الارتباب، وحلّه نظريّ أثبت فيه العلم بأدوات تتجاوز حدود العقل النظريّ. وما يعنينا هنا هو هذا التّشابه بين الغزالي والشكّك الأوائل في مستوى أصالة فعل النّقد الذي لم يستثني العقل ذاته، وهو عمل يستدعي المقارنة الدّقيقة ويحتاج النظر فيه إلى مقال مفرد.

خاتمة

اهتّرت صورة العقل مع الشكّك في تاريخ الفلسفة القديمة، نتيجة إخضاعه إلى نقد جذريّ شمل الأسس. وترجم هذا الفعل سعياً إلى تأسيس عقلانية ثريّة ومعرفة أصيلة، ولم تكن الغاية وفق ذلك، الإطاحة بالعقل بقدر ما كانت تحصيل معرفة يقينية. وقد انتهى الأمر إلى نتائج من طبيعة خلقية تفيد التّشبيث بسكينة اللائقين. وظهرت تداعيات هذه الرّجّة لمتانة العقل داخل الفكر الوسيط في هيئات مختلفة تراوحت إجمالاً بين التضمّن المستتر والرّفص الخفي والمعلن.

فقد ضُمّنت هذه الفلسفة في سياقات كلاميّة بالخصوص، لكنّها رفضت فلسفيّاً نتيجة ردّها إلى السفسطائيّة، وما يحيل عليه ذلك من ضرورة مقاومة تأثيراتها السلبية على يقينية المعرفة. واعتبرت لذلك مالكة لهيئة قياس فاسد أوجب مقاومتها، من خلال العمل على إثبات تهافت أسسها.

¹ الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق كامل عياد، (دمشق: 1934)، 72. ويمكن الإفادة بخصوص بنية المنهج عند الغزالي من مقال محمود زقزوق، "الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت وأهميته في تأسيس فلسفتيهما"، عالم الفكر، المجلد الرابع، ع3 (1973): 205-250.

ويعود هذا الصدد برأينا إلى وجود وثوقية مضاعفة للعقل والدين هيمنت على الفكر الإسلامي الوسيط، ولعلّ هذه السّياقات الملية كانت دافعا أيضا للتوجه نحو الاشتغال بالإرث اليوناني الواثق من العقل دون غيره، باعتباره يعزز الدفاع عن مضامين الشريعة الإسلامية.

Bibliography

- Aristū. *Kitāb al-Nafs*. Edited by Aḥmed Fu'ād al-Ahwānī, Cairo: Dār Iḥyā' al-Kutub al-'Arabiyyā, 1962.
- Auroux, Sylvain (dr.). *Dictionnaire les Notions Philosophiques*, Paris: Presses Universitaires De France, 1990.
- Brochard, Victor. *Les Sceptiques grecs*, Paris : J. Vrin, 1981.
- Cossutta, Frédéric. *Le Scepticisme*, Paris : Presses Universitaires De France, 1994.
- al-Fārābī, Muḥammad Abū-Naṣr. *Kitāb al-Ḥurūf*, Edited by Muḥsin Mahdī, Beirut: Dār al-Mashriq, 1990.
- . *Falsafat Aristūṭālīs wa-marātib Ajzā'ihā wālmūd'al-dī Minhu Ibt'd'a wa-yalīhi Intahā*. Edited by Muḥsin Mahdī, Beirut: Dār Majallat Shi'r, 1961.
- . *Kitāb sharā'it- al-Yaqīn*, Edited by Mājid Fakhri, Beirut: Dār al-Mashriq, 1987.
- . *Mabādi' al-Falsafat al-Qadīmā, Mā-yanbagī an yqaddama qabl ta'lūm falsaft Aristū, 'uyūn al-masā'il fī-al-manṭiq wa-mabādi' al-falsafā*. Cairo: al-Maktabā al-Salafiyya-Maṭba'at-al-Mu'īd, 1910.
- al-Ghazālī, Abū Ḥāmid. *Faḍā'ih al-Bāṭinīyya*. Edited by 'Abd al-Raḥmān Badāwī, Kuwait: Mu'assasat Dār al-Kuwayt al-Thaqāfiyya, 1969.
- . *al-Munqid Mina al-Dalāl*. Edited by Kāmil'Ayyād. Damascus: 1934.
- Ibn al-Nadīm. *al-Fihrist*, Edited by Yūsuf 'Alī al-Ṭawīl, Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1996.
- Ibn Hazm, Muḥammad. *al-fiṣl fī'l-Ahwā'wā'l-Milal wā'l-Niḥal*. Edited by 'Alī Ṣabīḥ. Cairo: Maktabat al-Salām al-'Ālamiyyah, 1348.
- Ibn Jā'a Billāh, Ḥammādī. "al-Raybiyyah." In *al-Mawsū'ah al-falsafiyyah al-'arabiyyah*, edited by Ma'anZiyādah. Volume 2. Beirut: Ma'had al-Inmā' al-'Arabī, 1986.
- Ibn Rushd, Muḥammad. *Talḥiṣ kitāb al-Nafs*, Edited by Aḥmad Fu'ād al-Ahwānī. Cairo: Maktabat al-Nahḍa al-Maṣriyya, 1950.

Ibn-Manzūr, Jamāl-al-Dīn. *Lisān al-‘arāb*. Edited by Khālid Rashīd al-Qāḍī. Beirut: Dār-Şubḥ, 2006.

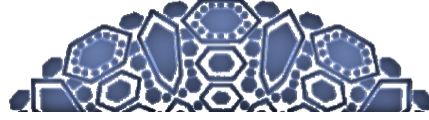
Tahānawy, Muḥammad ‘Alī. *Mawsūa’t Kashāf Işṭilāḥāt al-Fūnūn wa-l’ūlūm*. Edited by ‘Alī Daḥḍūḥ, Beirut: Maktabt Lubnān Nāshirūn, 1996.

Van Ess, Josef. “skepticism in Islamic religious thought.” In *God and Man in Contemporary Islamic thought*, edited by Charles Malik, Proceedings of the philosophy symposium held at the American university of Beirut, 6-10 February 1967, 83-98. Beirut: Centennial Publications, 1972.

Zaqzūq, Maḥamūd. “al-Shakk al-Manḥajī ‘inda al-Ghazālī wa dīkārt wa’ahamīyatuh Fī-ta’sīs falsafatayhimā,” *‘Ālm al-Fikr*, Volume 4. N. 3, 1973.



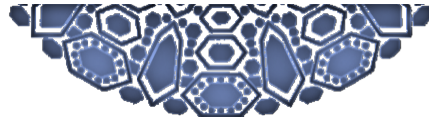
الفلسفة و العلوم فني السياقات الإسلامية



تابع أنشطتنا



اتصل بنا



الفلسفة و العلوم فني السياقات الإسلامية

<https://Philosmus.org>

كل الحقوق محفوظة ©